رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

صانع السيوف..
رأى الحق وعانقه

• خباب بن الأرث •

obeikandl.com

obeikandl.com

كان الغلام الضئيل النحيل فى التاسعة من عمره، أو أكثر قليلا، حين أغار أعراب بنى عامر على قبيلته فى أطراف نجد، ورجالها غائبون، فقاومهم أبوه ما استطاع حتى قتل، وسلبوا ماله، وسبوا أهله، وقد تفرقوا بالبيع بين أحياء العرب، إلا هذا الصبى، لم يجدوا له مشتريا، لا أحد طالبا ولا راغبا فيه، فقست قلوب أولئك الرهط من أعراب بنى عامر عليه، وصبوا عليه من الأذى صبا، صفعا وتأنيبا، بعد أن أصبح عبئا ثقيلا يريدون التخلص منه بأى ثمن، وهو لا يقدر حتى على البكاء بعد أن جفت الدموع، وذبلت العيون من الخوف، وكاد الجوع أن يقتله!! ولم توشك الشمس أن تزول حتى اشترته امرأة من حى بنى زهرة "أم أنمار" بثمن بخس، وكانت خاتنة، تكسب قوت يومها كل حين، إذا احتاج إليها أحد دور قريش.. ورغم قسوة شظف العيش، أكرمت "أم أنمار" الصبى، وآخت بينه وبين ابنها "عبد العزى" ثم دفعت به إلى حداد ليتعلم صناعة الحديد ،من السلاح والسيوف، ولم يمر عام حتى أجاد المهنة وأبدع فيها، وأصبح "خباب بن الأرت" صانع السيوف الشهير، يتحدث عن فنون صنعته سادة مكة وفرسانها..

ولكن الشاب اليافع، كان يبحث بينه وبين نفسه عن شىء غاب عنه، فهو لا يعانى ثقل الرق ومشاعر العبد، وفى نفس الوقت لا يشعر بمذاق الحرية، وهو يتابع حال أقرانه من الشباب، ويراقب أحوال مكة فى ذلك التاريخ الذى كان أرستقراطيا لا يحفل إلا بالسادة، ولا يلتفت إلا إلى القادة، أما المستضعفون فى الأرض فهم أذلة، وقضى عليهم أن يظلوا أتباعا، لا يملكون من أمرهم شيئا.. لم يكن مقتنعا بما يجرى حوله من

شئون العباد، ولم يكن راضيا عن مظاهر الضلال والغى، ولا عن الخلل الإنسانى فى موازين العدالة الاجتماعية.. ويستغرق "خباب" فى تأملاته طويلا، ثم ينهض متثاقلا يلتمس الهدى، فلا يجد إليه سبيلا.. ويطوف بالبيت العتيق، وتمنعه الفطرة النقية من التوجه للآلهة الحجرية باحثا عن المخرج والمنفذ، وهو يعلم أنه لن يجد عندها شيئا.. ولم يكد يبلغ داره وعمله حتى أشعل جذوة النار يلين بها الحديد، ويواصل صناعة السيوف، ويتفصد جبينه عرقا من وهج النار، ومن حرارة صيف مكة الملتهبة، حتى جال بخاطره سؤال أصابه برعدة عنيفة: من يتحمل نيران "الكور" المستعرة التى تذيب صلابة الحديد، وماذا يحدث لو سقطت يده فى غفلة فوق قطعة الحديد المحمى الملتهب؟! ولو كان "خباب" يملك من الخوارق ما تتيح له الجلاء البصرى وقراءة المستقبل القريب، لسقط مغشيا عليه حين يعلم أن ما جال بخاطره سوف يتحقق فوق جسده!!

وتواصلت مسيرة الأيام، ولا جديد معها.. وقبل أن يرتفع الضحى من ذلك اليوم المشهود فى حياة "خباب بن الأرت "التقى صديقا له، يتحدث إليه ببعض ما كان يدور بينهما من حديث، أو يلقى على مسامعه ببعض هموم الدنيا.. ولكنه يلحظ على وجه صديقه البائس الحزين، شيء من رضا وأمن وابتسام.. فيقول له: حالك اليوم ينبيء عن شيء تخفيه عنى؟! ويقول صديقه: أعرف أن لصداقتنا علينا حق، وأعرف عنك يا خباب ذكاء القلب ونفاذ البصيرة، ولكنى أخشى على نفسى إن أسررت لك مابى وأنك لسخى النفس، رضى السيرة تحفظ السر!! قال "خباب": هل تخشى على نفسك منى؟! قال صديقه: ليس على نفسى فقط، ولكن على أخوة لى، هم قلة، ويتربص بهم سادة مكة!! قال "خباب" وقد رد إليه شيء غاب عنه، أو رده صديقه إلى شيء غاب

عنه: هو إذن حديث ابن عبد الله محمد، وما ليس للعرب به من عهد، وقد ملأ قلوب قريش ذعرا، وتحالفوا أن لا يتركوا محمدا وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه فى أرض مكة!!

ويلتفت صديقه فى كل اتجاه، ويتمتم بصوت أقرب إلى الهمس: أجل.. أنه الأمين، رسول الله إلى الناس.. قال "خباب "وقد شعر بنفسه تسمو وتتألق: وماذا يقول لكم محمدا؟! قال صاحبه: إنه يهدينا سبلنا، ويبصرنا بأمرنا، ويخرجنا من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة والغى والضلالة إلى الهدى والرشد، ويبشر من آمن واتقى بأن له رضا الله عنه ما عاش، وله رضا الله عنه ومثوبته له بعد الموت، وأن من كذب وعصى عليه لعنة الله حيا وميتا.. ويتلو علينا الذى يتنزل عليه من السماء، وقرأ على مسامع خباب: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ وحتى بلغ قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾.. ولا يكاد خباب يسمع، حتى ينتفض جسده برعدة خفيفة، ويقول لصاحبه: هل تصحبنى إلى الأمين؟ فيقول له: موعدنا حين يقبل المساء.. يقول خباب متلهفا: بل الآن.. ويرد صديقه: لا تنسى أن العيون ترصد، وأصحابها يتربصون بالضعفاء من أصحاب محمد..

....

....

والمتربصون المترصدون يبلغون أبا جهل، ويقبل على قومه فى المسجد ويقول: يا معشر قريش، أغدوا إن شئتم على منظر عجب، إن ابن

الخاتنة قد صبأ، وإنا محرقوه بالنـار قبل أن ينتصف النهار!! وقد فعل ما قال به!! ومن يستطيـع أن يتصور تلك المشاهد المرعبة من قـسوة شياطين الكفر.. أو من كانت له القدرة علـى أن يقف ويشاهد شواء اللحم الحى بالحـديد المتـوهج يلتـصق بظـهره فـيمـتص الماء والدمـاء، وفوق رأسـه ونافـوخه، فيـستـسلم لغـيبوبـة طويلة، يفـيق بعـدها وقد ازداد إيمـانا واستبسالا..

لقد رأى الحق وعانقه.. وقاوم العذاب بالإيمان، وهم يشدون وثاقه ويحملونه ويدنونه من نارا عظيمة قد أججت، حتى توشك أن تحيط به، ثم يختطفـونه اختطافا، فيبـعدون به عن النار، ويجمعون مـا صنعه من القيود والـسلاسل، ثم يحمى عليـها فى النار حتى تتوهـج، ويطوق بها جسده ويداه وقدماه، ويتقدم أحدهم فيدفع برجله فى صدره دفعة تسقطه على ظهـره، وهم يتضـاحكون ثم يلـصقون ظهـره بالرضف (الحـجارة المحماة) حتى ذهب لحـمه، ثم يعودون فيفعلون بـه مثل فعلهم الأول.. وخباب، صابرا، صـامدا، محتسبا.. وتشتـرك "أم أنمار" الخاتنة، التى كان عبدا لـها قبل أن تعتقه، فى حـملة تعذيبه، وتأخذ الحـديد الملتهب وتضعه فوق رأسـه ونافوخه، و"خباب" يتلوى من الألـم، ولا يسمعون منه إلا شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول اللـه، أرسل بالهداية ودين الحق..

....

من على الأرض يتـحمل ما تحملتـه يا خباب؟! ويمر بـه رسول الله ﷺ، والحديد المحـمى المستعـر فوق رأسه يشـوى جلده ولحمه، ويـتألم رسول الله ﷺ، ويحزن قلبه، ويرفع كفيه إلى السماء داعيا "اللهم أنصر

خباب" . . وينجو خباب من محنة العذاب، ويسجل التاريخ صفحات من فنون الفداء والتضحية والعطاء لخدمة الرسالة التى انتشرت راياتها فى ربوع العالم. . أما "أم أنمار" فتصاب بسعار عصيب، جعلها تعوى مثل الكلاب، وقيل لها : لا علاج لك سوى أن يكوى رأسك بالنار. . تماما كما فعلت بخباب ،الذى تبوأ مكانه العالى بين المعذبين ،والذين نذروا حياتهم من أجل غاية تناهت فى العدالة والسمو، أن يضيئوا الضمير الإنسانى بحقيقة التوحيد، وهم الرواد الذين كنسوا وإلى الأبد وثنية قرون، ورسموا للحضارة الإنسانية مطالع جديدة رشيدة. . هم رجال حول الرسول آمنوا به ونصروه، وتصدروا مواكب الإسلام، وهى تطوى العالم القديم بإيمانها. . و"خباب بن الأرث" فى مقدمة أولئك الرجال الأبرار من كتائب الحق. . أحد أروع نماذج البشرية الفاضلة وأبهاها، احتمل الهول، وعقد العزم على البذل والعطاء. . إيمان وثبات وبطولة وولاء لله وللرسول ﷺ ولحقيقة توحيد الرب وتحرير الخلق. .

وكل من رأى صانع السيوف الماهر، وقد انتصر على محنة العذاب، لم يكن على علم بالسر الذى توفر له فجعل منه رائدا للفداء والتضحية فى سبيل دعوة التوحيد، ولم يكتشف أحد أسرار القدرة النفسية الهائلة التى صاغ بها فضائله، وقد نذر حياته للبذل، ومدركا بذكاء القلب ونفاذ البصيرة، أو بالحس والبداهة، المنطق والعقل، أن المعركة الأكبر سوف تكون أشد هولا مع قريش، ورؤوس الكفر، وكل المتربصين الجلادين، وأن المؤمنين سوف يزيدون ولا ينقصون، وأن القرآن الذى يتلونه خفية وهمسا، سوف يعبر الزمان والمكان إلى ما شاء الله أن تكون تلاوته جهرا بين خلق الله. . فأبدع "خباب" ونبغ فى دراسة القرآن، حتى يتفق

الصحابة على القول بأنه مرجعا فيما يتصل بالقرآن حفظا ودراسة.. وهو الذى أسلم راغبا، وهاجرا طائعا، وعاش مجاهدا، وقد شهد مع الرسول ﷺ جميع الغزوات، بدرا، وأحد، والخندق، والمشاهد كلها.. وكان على يقين بصدق ما يقول به الرسول الكريم بأن الدنيا ستفتح عليهم أقطارها، فنذر حياته للجهاد، فارسا بين صفوف الفاتحين فى عهد خلافة أبى بكر وعمر، مرابطا يسعى للفوز بالشهادة..

....

....

وقد أقبل يوما على الفاروق عمر، مستأذنا فى اللحاق بجيش من جيوش العراق، فيهش له عمر ويجلسه على متكئه، ويقول له: يا خباب ما على الأرض أحد أحق منك بهذا المجلس إلا رجلا واحدا.. فيقول خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: بلال.. وكان حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، منفذا للعودة إلى الماضى القريب، وأن يستعيدوا مشاهد من التضحيات الأولى التى سجلها التاريخ لرجال كانوا مع وحول الرسول الكريم ﷺ، والهول الذى احتملوا.. وللفاروق عمر فى نفسه تقديرا لا يوصف، وواقعة لم ينسها مع "خباب" حين بشره بالهداية إلى الإسلام، فى لحظة عاصفة من غضب عمر وقد تقلد سيفه الذى خرج به ليصفى حسابه مع الإسلام ورسوله، كان خباب يدرس القرآن لـ"فاطمة بنت الخطاب" وزوجها "سعيد بن زيد" حين ارتج باب منزلهم المتواضع تحت قبضة عمر، وخطف الصحيفة التى حاولت شقيقته إخفائها، وقرأ ما بها من آيات الله، حتى صاح "دلونى على محمد" حينئذ خرج "خباب" من مخبأه الذى كان يتوارى فيه، وصاح:

"يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته بالأمس يقول : اللهم أيد الإسلام بأحب الرجلين إليك، أبى الحكم بن هشام وعمر بن الخطاب" . . وسأله عمر: "وأين أجد الرسول الآن يا خباب؟؟" لم ينس عمر رضي الله عنه تلك اللحظة التى عاشها وقد ملكت عليه نفسه وجوارحه، وهو يسأل خباب عن مكان رسول الله ﷺ ويشهر إسلامه . .

لقد طابت نفس عمر وسعدت بوجود "خباب" إلى جواره . ويطيل النظر إليه، لا يرفأ له جفن، والحديث لايزال جاريا عن ذكريات من حياة كانت تمور مورا شديدا بالأعباء والصعاب والتضحيات، والمسلمون وقتئذ قلة . . ويدرك خباب ما يدور فى نفس عمر . . فقال "خباب" مواصلا حديثه: لقد رأيتهم ذات يوم أخذونى ثم أوقدوا لى نارا فسلقونى فيها، ثم يقبل رجل فيضع رجله على صدرى، فوالله ما اتقيت برد الأرض إلا بظهرى . . ثم يرفع رداءه، وينظر عمر ومن معه من المسلمين، فيرون شرا مروعا، يرون أن ظهره قد برص . .

. . . .

لم تعرف الإنسانية فى تاريخها الطويل . . لم يعرف التاريخ الإنسانى بطوله وعرضه . . رجال هم أصحاب جهد بشرى خارق، وأصحاب عظمة باهرة . . مثل أولئك الرجال من أصحاب رسول الله ﷺ، ودورهم الجليل الذى نهضوا به، وقد أعادوا للحياة صوابها ورشدها، وجددوا لها شبابها . . كانوا فرسانا وثوارًا، مفكرين محررين، ولم يجدوا أمامهم صعوبات إلا قهروها، ولا عقبات إلا ذللوها، وبقدر ما بذلوا من تضحيات، وحين أقبلت عليهم الدنيا بخيراتها وثرواتها،

انصرفوا عنها.. ويقول "خباب": خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا.. ولم يخش خباب الفقر، ولكن كان يخشى أن يلقى الله فقيرا ليس له حظ كبير من الصالحات..

وصاحب العبقرية الفذة فى فنون الفداء والتضحيات، والذى تبوأ مكانه العالى بين المعذبين فى سبيل كلمة التوحيد ونشر رسالة الإسلام، كان كثير البكاء كلما ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه الذين بذلوا حياتهم لله، ثم ظفروا بلقائه قبل أن تفتح الدنيا أبوابها، ويفيض المال على المسلمين.. ويقول باكيا: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ ما أملك دينارا ولا درهما، والآن فى ناحية بيتى فى الصندوق أربعين ألفا.. ويشير إلى المكان الذى فيه أمواله، قائلا: والله ما شددت عليها من خيط، ولا منعتها عن سائل.. ولم ينعم بثروات الدنيا إلا ببناء دار متواضعة له بالكوفة، ثم يضع أمواله فى مكان ما من الدار يعرفه أصحابه ورواده، وكل محتاج يذهب فيأخذ من المال حاجته..

ومات خباب فى السنة السابعة والثلاثين للهجرة، ودفن بظاهر الكوفة، كما أوصى ابنه، حتى يقلع المسلمون عن دفن موتاهم قريبا من دورهم، فدفن الناس موتاهم حول قبره، خارج المدينة.. بجوار صانع السيوف الذى رأى الحق وعانقه، ورأى طيبات الدنيا فأعرض عنها اندفاعا إلى الجهاد..